المورد

تاريخ فن العمارة العربيـة الاسلامية

مدارس هـذا الفن والفترات الكبرى لتطوره

بقلم
شريف يوسف

المقـدمة :

من المعلوم ان العرب الذين اندفعوا من الجزيرة العربية حاملين راية الاسلام استطاعوا في خلال نصف قرن ان يفتحوا ممالك كانت لها حضارة راسخة ومدنية عريقة ، وقد اسسوا خلال هذه الفترة القصيرة امبراطورية تزيد في سعتها على سعة الامبراطورية الرومانية في ايام عظمتها واتساعها .

لقد احتوت هذه الامبراطورية العربية اما كثيرة ، وقد شملت كلا من سوريا وجزءا من ارمينية وشمال افريقية واسبانيا من الجهتين الشمالية والغربية ، كما شملت العراق وايران وتركستان وافغانستان والهند من الجهة الشرقية . وكانت المسيحية والوثنية منتشرة في هذه البلاد ، فوجد المسلمون فيها كنائس ومعابد عامرة عديدة وابنية وقصور ذات طراز واسلوب متقدم في فن العمارة ، ووجدوا من اهل هذه البلاد رجالات ذوي خبرة ومهارة فائقة في فن البناء والانشاء والزخرفة ، كما وجدوا مواد انشائية وافرة فيها ، فليس من العسير عليهم بعد هذا ان يبدؤا في اقامة المباني التي تلائم طبيعة معاشهم وتتفق مع متطلبات شعائرهم الدينية .

وبعد ان تم للعرب الاستقرار في البلاد التي رفعوا فوقها رايتهم توجهوا بكل همة ونشاط الى الناحية العمرانية ، فاستعانوا برجال الفن والصنعة من اهل البلاد التي خضعت لحكمهم وبرجال فنيين من البلاد التي بقيت خارج هذا الحكم ، وبدات عماراتهم تظهر للعيان هنا وهناك ، واصبح لهذه العمارات شخصية معروفة ظاهرة ، تختلف كل الاختلاف من حيث الاسلوب والطراز عن تلك التي وجدوها قائمة في البلاد التي تم لهم فتحها . ان معظم العمارات والمنشآت التي شيدها المسلمون في بداية حكمهم كانت في الغالب مساجد او قصور « دور امارة » ، ثم توسعوا في البناء واخذوا يشيدون المدارس والتكايا والجسور والقناطر ، ويتفننون في تخطيط مدن جديدة فيها الشوارع الواسعة والبرك الجميلة والحدائق الغناء التي تشهد بتقدمهم الفني واتساع خيالهم وتذوقهم لكل شيء جميل .

لقد كان للفنون بصورة عامة وللفن المعماري بصورة خاصة مكانة كبيرة عند حكام المسلمين وامرائهم وملوكهم ، وكان الفنانون على اختلاف جنسياتهم يظفرون بالتقدير والمكافاة من الحكام الذين يحلو لهم استغلال مواهب هؤلاء الفنانين في تشييد المباني وتزيينها وزخرفتها وتاثيثها ، منفقين عليها المال بكل سخاء وكرم ، يدفعهم الى ذلك طلب رضى الله سبحانه وتعالى عند بناء المساجد والجوامع ، او رغبة في التفاخر وتخليد مآثرهم وامجادهم . فالمساجد والقصور والمدارس ودور الشفاء والقلاع الحصينة وغيرها كانت كلها تشيد بامر هؤلاء الحكام وتحت اشرافهم . فيعنى بزخرفتها وجمالها لتحمل اسمهم في الحياة وتضم رفاتهم بعد الممات احيانا . وهكذا كان فن البناء دوما في خدمة الامراء والسلاطين وحاشيتهم المقربين ، وتبعا لمستوى ثقافتهم كان هذا الفن ياخذ اتجاهه ، وتتطور اساليبه ، وتتنوع زينته وزخرفته .

تطور فن العمـارة العربيـة الاسـلامية :

حين بدا العرب حياتهم الحافلة بعظائم الامور وجلائل الاحداث كان فن البناء عندهم لم يزل وليدا ، فلم يكن في بلادهم اي فن في ذلك الوقت خلا اثر مجدب تخلف عن الماضي السحيق ، ولم يظهر في شبه الجزيرة العربية فن بناء قومي ظاهر الا في البقاع الخصبة التي كان يسكنها شعب يعيش في رخاء واستقرار كاليمن التي تختلف ظروفها كل الاختلاف عن تلك الظروف التي تضطر القوم الرحل الذين يضربون في الصحراء ويعيشون في عزلة وركود .

لقد نشا فن العمارة العربية الاسلامية في المساجد اولا وفيها ولد وفي رحابها نما وترعرع ، فكانت المساجد والجوامع الاولى ابنية عادية اقيمت للصلاة والوعظ والاجتماعات العامة ، وليس فيها نزوع الى اتقان في العمارة ، فاول مسجد بني في الاسلام مسجد المدينة المنورة ، بناه الرسول الاعظم (ص) ووضع حجر اساسه بيده الكريمة سنة ٦٢٢م . ويعتبر النموذج الاول لسائر المساجد الاخرى . وكان هذا المسجد مساحة من الارض مربعة الشكل ، تحيط بها جدران من الآجر والحجر ، وكان هناك سقف على جزء من اجزاء هذا المربع سقيفة صنعت من جريد النخل .

في مثل هذا البناء البدائي لم تكن ثم ضرورة الى استعارة اساليب معمارية من مكان ما ، اذ لم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاساليب ، وقد ظلت المساجد بالرغم من التغييرات التي طرات على بنائها بيتا للعبادة ورمزا للوحدة الدينية والدنيوية .

انتقل العرب بعد ذلك من القناعة بالضروري اللازم الى الابنية الضخمة الفاخرة انتقالا سريعا ، فلم يمض على وفاة النبي الكريم (ص) عشرون سنة حتى اعيد بناء مسجده بالمدينة ، واقيمت له جدران ودعائم من الحجر . وبعد سنين قليلة

ادخلت المقصورة في عمارة المساجد ، وظهرت المآذن ، ودخلت زيادات ثانوية كالايوانات والاروقة التي تحيط بصحن المسجد ، رفعت فوقها اقواس وعقود متنوعة الاشكال من مدببة الاطراف الى مسطحة الى مفصصة وغيرها من الاشكال ، وقد رفعت السقوف على اعمدة او دعائم من الرخام والحجر او الآجر ، واستخدم المحراب في تحديد اتجاه القبلة ، وهكذا نرى عمارة المساجد تتطور في زمن قصيرة حتى اصبحت تشمل جميع المظاهر الرئيسة الهامة في بناء المساجد .

لقد اظهر المسلمون رايا صائبا في اتخاذ القبة عنصرا مميزا لابنية المساجد ، وان كان بناء القبة معروف عند اليونان والرومان من قبل ، ففي سنة ٦٩١م . شيد الخليفة عبدالملك ابن مروان الاموي قبة الصخرة في بيت المقدس وجعلها من اروع الابنية الاسلامية واضخمها ، ويأتي بعدها من حيث الاهمية والترتيب التاريخي المسجد الجامع الاموي في دمشق . ومما يمتاز به هذا المسجد من حيث الفن المعماري الاقواس التي تشبه حدوة الفرس والذي قدر له ان يكون مميزا لفن العمارة العربية في سوريا والمغرب ، ثم بنيت المآذن ، وكان اول مثال لاستعمالها في الاسلام في دمشق ، والغرض من بنائها غير غامض ، اذ انها بنيت لتكون مكانا مشرفا يدعو منه المؤذن المؤمنين الى الصلاة ، ولعل المسلمين عمدوا الى استحداث هذا ليكون مقابلا لعادة المسيحيين في الدعوة الى العبادة بدق المقرعة وذلك قبل استخدام النواقيس .

وهناك فوق الظواهر المعمارية التي ذكرناها عناصر اخرى مميزة للفن المعماري الاسلامي يمكن اعتبارها كزخرفة او زينة في البناء ، منها الكتابات بمختلف انواع الخط العربي وحفرها في الخشب او الحجر او الآجر ، ففي هذه الكتابات يتجلى الذوق والمهارة والجمال في استخدام الحروف لاغراض الزينة . ومن العناصر الجديدة ايضا الزجارف الملونة والبارزة ، كما ذاعت طريقة الزخرفة بالقاشاني الزجج البراق المختلف الالوان والمنقوش . ومن عناصر البناء الاسلامي ايضا المقرنصات تلك الظاهرة المعمارية العربية الفريدة التي تبعث المسلمين انى ذهبوا ، واصبحت طابعا يميز عماراتهم من الهند الى اسبانيا ، وقد فاق العراقيون غيرهم في هذا النوع من الزخرفة حتى ان العلماء يعتقدون ان اصلها عراقي محض ، وكذلك الشرفات المسننة او المضرسة التي يرجع اصلها الى طراز البناء العراقي الآشوري والبابلي .

تأثر العرب بالمدنيات والحضارات القديمة :

قلنا ان العرب قد تأثروا بحضارات ومدنيات البلاد التي اكتسحتها جيوشهم الظافرة ، وكان تأثرهم بالاساليب الفنية التي كانت زاهرة في كل من سورية ومصر والعراق وايران والهند وغيرها من البلاد شيئا واضحا وجليا،ولكنهم ما لبثوا ان افرغوا تلك الفنون القديمة في قوالب متجانسة ومتناسبة لها طابع خاص وميزة بارزة ، فاظهروا للعالم فنونا اثرت بدورها في فنون الغرب بعد ذلك تأثرا ظاهرا حتى اليوم . فاذا قارنا الفنون العربية بالفنون التي سبقتها لوجدنا ان هذه يعوزها التنوع والابتكار ، وان العالم كان قد سئمها فتطلع الى تقاليد واساليب فنية اعظم ابهة واكثر حرية في الزخارف والموضوعات، لا يعدل ما فيها من خيال وجاذبية الا ما تمتاز به من اسرار في مزج الالوان وجعلها تملأ البصر وتبهج النفس ، تلك الاساليب الفنية المنشودة التي وجدها العالم في الفنون الاسلامية بعد ان امتدت امبراطوريتهم واتسعت وشملت جميع البلاد المعمورة في العالم اذ ذاك .

وليس باستطاعتنا ايضا نكران مقدار استعانة العرب في اوائل نهضتهم برجال الفن والصناعة من اهل البلاد التي كانت ذات حظ وافر من الحضارة في ذلك العهد ، فالعمارات الاسلامية القائمة في العالم الاسلامي الممتد من الصين شرقا الى الاندلس غربا اشترك في اظهار دقائقها وتفصيلاتها المبتكرة صناع ومهندسون من مختلف الجنسيات والامم التي اعتنقت الاسلام دينا وحتى الذين بقوا على دينهم من فرس وبيزنطيين وهنود واتراك ونصارى ومغول وبربر .

الادوار التاريخية التي مرّ بها فن العمارة الاسلامية :

بدأ الطراز الاسلامي يظهر عندما اخذ المسلمون يجمعون شتى الطرز المعمارية القديمة ويطبعونها بطابع دينهم الجديد ويظهرونها للعالم فنا معماريا جديدا متميزا عن غيره من الفنون المعمارية المعروفة في العالم . فالطراز الاموي الذي هو اقدم الطرز الاسلامية جمع بين الطراز والاساليب المعمارية الهلنستية والمسيحية الشرقية (البيزنطية) وبين المقاصد التي توخاها المسلمون لابنيتهم ومنشاءاتهم ، ومن هذا الامتزاج ظهر طراز اموي بديع انتشر في شمال افريقية حتى وصل الى الاندلس .

وعندما دالت دولة الامويين وآلت الخلافة الى العباسيين وانتقلت العاصمة الاسلامية من دمشق الى بغداد ظهر طراز جديد كان فيه لاساليب الفن المعماري الساساني تأثير كبير ، كما انه تأثر بالاساليب الفنية الموروثة عن البابليين والآشوريين والبارثيين وشيء من الفن الافريقي الذي جاء الى الشرق عند فتح الاسكندر لهذه البلاد . ولما ضعفت الدولة العباسية وأخذت الاقاليم الاسلامية تستقل عن عاصمة الخلافة العباسية ظهرت في كل اقليم صور واساليب جديدة للفن المعماري الاسلامي مع المحافظة على الروح الاسلامية الاصيلة .

ان اكبر دولة قامت في الشرق في ظل الدولة العباسية هي الدولة البويهية التي أسسها (بويه) الملقب بـ (آل شجاع) ، ولما آلت السلطنة الى (عضد الدولة) لقب بالملك ، وهو اول من لقب بهذا الاسم ، ودامت السلطنة البويهية من سنة ٣٢٠هـ الى ٤٢٧هـ . وكانت معاصرة للدولة الفاطمية في مصر .

وعندما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية طمع بعض قوادها في الولايات وظهرت فروع تركية عديدة للدولة العباسية منها الطولونية في مصر والايلكية في تركستان والاخشيدية في مصر والغزنوية في افغانستان والهند . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى (السلجوقية) في اواسط القرن الخامس الهجري ودام حكمها نحو ثلاثة قرون . ثم جاء المغول الى غرب آسيا واكتسحوا الدولة السلجوقية ، ما عدا السلجوقيين في بلاد الروم الذين ظلوا سائدين في سلطة الامراء حتى مجيء العثمانيين الذين استولوا على دولتهم واسسوا الدولة العثمانية في اوائل القرن الثامن . اسس المغول في العراق الدولة (الايلخانية) التي استمر حكمها حتى سنة ١٣٣٦م ، ثم جاءت الموجة المغولية الثانية بقيادة (تيمورلنك) بعد القضاء على حكم خلفاء (هولاكو) في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي .

أما في ايران فقد ظهرت الدولة الصفوية وحكمت من سنة ١٥٠٢ الى سنة ١٧٢٦م . وعندما دب الضعف في هذه

الدولة ثار عليها الافغان وظلوا يحكمون في مازندران نحو عشرين عاما . وبعده ظهر (نادر شاه) وطرد الافغان من ايران ولكنه قتل سنة ١٧٤٧م . وفي الاقاليم الواقعة غرب ايران نجد السيادة العثمانية اصبحت تشمل آسيا الصغرى وقسم من شمال افريقية .

هذا ما كان في الشرق الادنى ، اما في شمال افريقية فان الفاطميين تم لهم فتح مصر سنة ٩٦٩م . وبنوا القاهرة ، وعلى انقاض الدولة الفاطمية اسس صلاح الدين الايوبي الدولة الايوبية واستمر حكمها من سنة ٥٦٤ الى سنة ٦٤٨هـ حين غلبهم مماليكهم الاتراك .

وفي المغرب الاقصى تم للعرب فتح جميع اسبانيا تقريبا سنة ٧١١م ، وظلت الاندلس تابعة للخلافة الاموية مدة تسعا وثلاثين سنة . وقد بلغت الاندلس في ايام (عبدالرحمن الناصر) وابنه (الحكم) اوج مجدها . وبعدها اضمحلت الدولة واخذت بالانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وصاروا دولا صغيرة متفرقة وسموا بـ (ملوك الطوائف) . اتحد المغرب والاندلس تحت حكم المرابطين ، وعندما خلفهم الموحدون سنة ١١٤٧م . بسطوا نفوذهم على الاندلس وظلوا يدافعون عنها تجاه حملات الاسبان حتى سنة ١٢٢٥م . ولما حكم (بنونصر) الاندلس اقتصر حكمهم على مملكة غرناطة ، وهذه استطاعت ان تقاوم الاسبان حتى سنة ١٤٩٢م وبعدها سقطت وبسقوطها زال حكم العرب من الاندلس ولكن آثارهم المعمارية ظلت شاخصة فيها تدل على مقدار ما بلغه الفن المعماري العربي الاسلامي من رفعة وعظمة .

لقد حصل نتيجة تبدل الحكم هذا وانتقال السلطة من اقليم الى اقليم ومن بلد الى بلد من البلدان الاسلامية العديدة شيء كثير من التطور في فن العمارة ، الا انه ظل محافظا على الاسس العامة لهذا الفن في كل دور من تلك الادوار التي بيناها بصورة مختصرة ، ونحن حين نتتبع تاريخ الاقطار الاسلامية حسب تسلسلها التاريخي نلمس بوضوح آثار وحدة حضارية قديمة تمتد من اقصى المغرب العربي الى اقصى بلاد الهند .

مدارس الفن المعماري الاسلامي :

بالرغم من وحدة الفن المعماري الاسلامي النسبية في كل دور من الادوار التاريخية السالفة الذكر فان هذا الفن تأثر بتغييرات محلية مرتبطة بتقاليد الشعوب التي دخلت الاسلام وتنوع بتنوع المواد الانشائية الموجودة في كل بلد من البلدان الاسلامية ، كما تأثر بعدوى الجوار اللامم التي لم يستطع الاسلام السيطرة عليهم . ولهذا نرى هناك بعض الاختلاف في المظاهر العامة للمنشآت الاسلامية بين بلد وآخر مما حدى بالعلماء الى تقسيم الفن المعماري الاسلامي الى عدة مدارس . وقد حدد العالم (هـ . سلادان) هذه المدارس بمايأتي :-

- المدرسة السورية - المصرية .
- المدرسة المغربية وتشمل تونس والجزائر والمغرب واسبانيا وصقلية .
- المدرسة الفارسية وتضم بلاد الرافدين وايران .
- المدرسة العثمانية .
- المدرسة الهندية .

ان هذا التقسم لا يعني وجود حدود حقيقية بين مدرسة واخرى ، وعلينا الا ننخدع بالاطار الظاهري لكل مدرسة من هذه المدارس ، بل الافضل ان نجعل هذا التصنيف اكثر مرونة وان نزيح كثيرا من الفروق الظاهرية الموجودة بينها ، فالبلاد الاسلامية التي تربطها علاقات روحية ثابتة لم تقف المسافات الشاسعة التي تبعدها بعضها عن بعض حائلا دون تبادل الافكار وسريان الازدهار الفني الذي قد يظهر في احداها الى الاطراف الاخرى من البعثات الاسلامية ، وطالما ظهرت ضرورات سياسية كثيرة اوجبت التضامن بين الحكام المسلمين المتباعدين ، فقد تبادل هؤلاء البعثات الثقافية وسعوا لتوثيق عرى الروابط بالمصاهرة والتعامل ، كل ذلك ساعد رجال الفن على الانتقال من بلد الى آخر لتبادل الصيغ الفنية والتباهي في التفوق الفني عند كل منها .

لهذه الاسباب يجب علينا عدم اعطاء اهمية كبرى لمفهوم المدرسة حسب التقسيم الجغرافي المار الذكر ، بل يجب ان يكون اهتمامنا بالتقسيم التاريخي للتطور الطويل لهذا الفن .

الفترات الكبرى للفن المعماري الاسلامي :

لقد قسم العلماء الادوار التي مر بها الفن المعماري الاسلامي الى اربع فترات اساسية كبرى فجعلوا الفترة الاولى تبدأ منذ انتشار الاسلام وتاسيس الامبراطورية العربية الى زمن ضعف الدولة العباسية ، اي من منتصف القرن السابع للميلاد الى نهاية القرن التاسع . ففي هذه الفترة انتقلت عاصمة الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى دمشق ، ومن دمشق الى بغداد . وقد اصبحت الامبراطورية العربية تشمل بلاد الرافدين وفارس وسوريا وقسم من البلدان التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط ومصر وشمال افريقية والاندلس . ثم امتد حكم العرب شرقا ووصل كاشغر في الصين الغربية كما وصل قلب فرنسا الى بواتية غربا .

اما الفترة الثانية فقد بدات من بداية القرن العاشر واستمرت زهاء مائتين وخمسين سنة ، وفيها كانت الخلافة الاموية في الاندلس والخلافة الفاطمية في مصر في اوج عظمتهما ، كما قامت في العراق الدولة البويهية ثم الدولة السلجوقية . وقد خرج الفن المعماري في هذه الفترة من مرحلة التقليد واغتنى بتأثيرات جديدة ، فتنوعت اتجاهاته واساليبه مع المحافظة على الروابط الاساسية التي تربطه بمصادره الاصلية .

والفترة الثالثة امتدت من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر وفيها انحلت سلطة الخلفاء في بغداد واخذت الممالك الاسلامية تنسلخ الواحدة بعد الاخرى عن الامبراطورية مما ادى الى تعرضها الى اخطار خارجية عنيفة . اضاع المسلمون في هذه الفترة الاندلس واشتعلت الحروب الصليبية واخذ المغول يعيثون في البلاد الاسلامية فتهدمت العروش وكان هذا التهدم من الاسباب الداعية لزيادة التنافس والتفاخر في المباني والمنشآت واساليب تنسيقها وزخرفتها .

والفترة الرابعة التي دامت نحو اربعة قرون توحدت فيها البلاد الاسلامية تحت الحكم العثماني واصبحت القسطنطينية عاصمة الخلافة الاسلامية وامتد نفوذ الاتراك على جميع البلاد العربية من المغرب الى الخليج العربي ، وعلى بلاد البلقان وجزر اليونان فبرز في هذه الفترة طراز بناء تركي استوحى اسلوبه من الطراز البيزنطي والسلجوقي . الا ان ايران في هذه الفترة تابعت تطورها المعماري القومي ولم تتأثر كثيرا بالطراز العثماني ومثلها بلاد الهند .

دراسة فن العمارة الاسلامية :

ان كل منصف لا يستطيع ان ينكر فضل علماء الغرب في دراسة الفن العربي الاسلامي ، فقد عنى الغربيون عناية كبيرة في دراسة آثار هذا الفن في مختلف الادوار التاريخية وفي مختلف الاقطار الاسلامية ولم يتركوا زاوية من الزوايا الاثرية الا وتناولوها بحثا وتنقيبا ودونوا نتائج دراساتهم هذه في كتب واسفار عدة . ونحن اصحاب هذا التراث مدينون لهؤلاء العلماء بما اخرجوه لنا من ابحاث ودراسات وما جمعوه من وثائق وما نشروه من صور ومخططات ورسومات . فمن الواجب الاعتراف بفضلهم وتقدير مجهودهم الضائع وتضحيتهم من مال ووقت في التاليف والتنقيح والاخراج والطبع ، ولاشك ان كل ما نشروه يعتبر ذخرا ثمينا في هذا الباب .

اما نحن العرب فعنايتنا في هذا الموضوع لاتزال قليلة نسبيا وان كانت هناك بوادر مفرحة للنهوض في هذا البحث اخذت تظهر بوادرها عند المثقفين من الجيل الجديد ، فقد صار البعض منهم يترجم بعض المؤلفات الاجنبية او يدون ما يعثر عليه من معلومات في مصادر عربية قديمة وينشرها بشكل مقالات في الصحف والمجلات ، كما انه من دواعي الفخر ان نرى دوائر الآثار القديمة والجامعات في مختلف البلاد العربية قد نشطت نشاطا ملحوظا في هذا المضمار ، وصار الاهتمام بما بقي من الآثار الاسلامية من واجبات هذه الدوائر وشعرت الجامعات بضرورة التوسع في دراسة التراث العربي الاسلامي والكشف عن جوانبه الغامضة المتعددة الفروع والشعب .

ان العمارات الاسلامية التي لايزال بعضها قائما والمنتشرة من الصين الى بلاد المغرب والتي اشترك في اظهار دقائقها وتفصيلاتها المبتكرة صناع ومهندسون من مختلف الجنسيات والامم كلها تحتاج الى دراسة واكتشاف ما فيها من دقة وجمال، فهذه العمارات هي احدى الشواهد الدالة على مقدار ما وصلت اليه الحضارة المستفيضة على يد العرب في مختلف البلاد التي مرت بها او استقرت فيها الحضارة والمدنية العربية . هذا وسنحاول الآن استعراض اهم الآثار العمرانية في كل قطر من الاقطار الاسلامية حسب الفترات الكبرى التي ذكرناها .

الفترة الاولى لتطور فن العمارة العربية الاسلامية :

في هذه الفترة نرى الابنية والمنشاءات العربية الاسلامية في عهد الراشدين تتمثل فيها كل البساطة المعبرة عن بساطة الدين الاسلامي الحنيف ، فقد امتنع هؤلاء الخلفاء عن البذخ والاسراف في اموال المسلمين وتقيدوا كثيرا في الصرف لهذه الاغراض ، وانحصر همهم في تقوية جيوشهم الظافرة وتاسيس مدن جديدة بسيطة البناء في البلاد التي تم لهم فتحها لتكون معسكرات لجنودهم .

بنى العرب (البصرة) سنة ١٦هـ / ٦٣٥م بعد فتح العراق وكان مؤسسها الاول (عتبة بن غزوان المازني) عامل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) . خططها وفقا للقبائل التي سكنتها وجعل فيها الشوارع الرئيسة والفرعية ورحبات فسيحة لرابط الخيل ، وكانت المنازل متلاصقة فيها ، وجعل المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال في وسط المدينة وانتشرت الاسواق حولها .

ثم بنى العرب (الكوفة) بعد عامين او ثلاثة من بناء البصرة وجاء بناؤها على غرار مدينة البصرة . اسسها (سعد بن أبي وقاص) على الجانب الغربي من نهر الفرات بالقرب من الحيرة ، واول ما اختط فيها المسجد ودار الامارة .

وعندما فتح (عمرو بن العاص) مصر سنة ٦٤١م اختط مدينة (الفسطاط) وجعلها معسكرا لجنوده ، وتقاسمت القبائل خططها وبنى مسجدها ودار الامارة في وسطها .

لقد كان البناء بسيطا في جميع هذه المدن واغلب موادها الطين والقصب والمواد الاولية المتوفرة محليا ، وكانت البساطة ظاهرة في البناء ولم يحاول الولاة والحكام الاسراف على الزخرفة والبذخ على الرياش والاثاث .

كان مسجد الرسول الاعظم (ص) في المدينة المنورة النموذج الاول لبناء المساجد في المدن الاسلامية الجديدة ، وهي عبارة عن مساحة من الارض مربعة الشكل تقريبا . مسورة بسور من الطين والحجارة ، اقيمت ظلة للمصلين في الضلع المتجه الى القبلة وخلفها صحن مكشوف واسع .

اما الكعبة الشريفة في مكة المكرمة فبعد ان نزع منها المسلمون ما يحيط بها من اصنام وحطموها بقيت قائمة في وسط ساحة تسمى (براحا) خال من كل بناء ، وكانت دور قريش متواضعة البناء شيدت من حجارة مكة (الدبش) ذات دور واحد ، وابوابها شارعة الى الكعبة . وفي زمن عمر بن الخطاب (رض) توسع الحرم الشريف واحيط بجدار يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل ، وجعل له ابواب . وقد زادت مساحة هذا الحرم مرة اخرى في زمن عثمان بن عفان (رض) ، وجعل له اروقة يستظل بها المسلمون .

فتح المسلمون بلاد الشام على يد (خالد بن الوليد) ورفاقه اليامين ودخلوا دمشق فوجدوا انفسهم في مدينة عامرة جامعة ، ولاداء فريضة الصلاة شاركوا النصارى كنائسهم او قسموها الى قسمين قسم لاقامة الصلاة للنصارى والقسم الآخر للمسلمين .

وعندما توجهت جيوش المسلمين بقيادة (عمرو بن العاص) لفتح بيت المقدس لم تستسلم حاميتها الا بعد وصول عمر بن الخطاب (رض) اليها . سار عمر (رض) ودخل كنيسة القيامة وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة لكي لا ياخذ المسلمون هذه الكنيسة من بعده ، ثم انطلق الى الصخرة التي اشار عليه البطريق ان يجعلها مسجدا للمسلمين واخذ يرفع ما عليها من ردم وهرع المسلمون الى الاقتداء به وتم بناء المسجد حولها .

تطور البناء في العهد الاموي :

انتقلت الخلافة الى الامويين سنة ٦٥٨م واصبحت دمشق عاصمة الامبراطورية العربية الكبرى ، وعندما اخذت الدولة بحقها الوافر من الترف والرفاه نرى المسلمين قد انتقلوا من القناعة بالضروري اللازم للحياة البسيطة التي كانوا يحيونها الى الترف والبذخ في سبيل اقامة اجمل المباني الفخمة التي تتفق ومركز امبراطوريتهم العظيمة ، وبداوا في بناء المساجد والجوامع فاختاروا كنيسة (القديس يوحنا) وحولوها الى مسجد جامع بعد ان اشتراها الوليد بن عبدالملك من النصارى ، وجاء بناء هذا الجامع آية في الفن وروعة في الزخرفة والجمال . ففي هذا المسجد الجامع تتمثل ظواهر معمارية اسلامية عديدة منها ترتيب الاروقة والبلاطات في الحرم وادخال المحراب

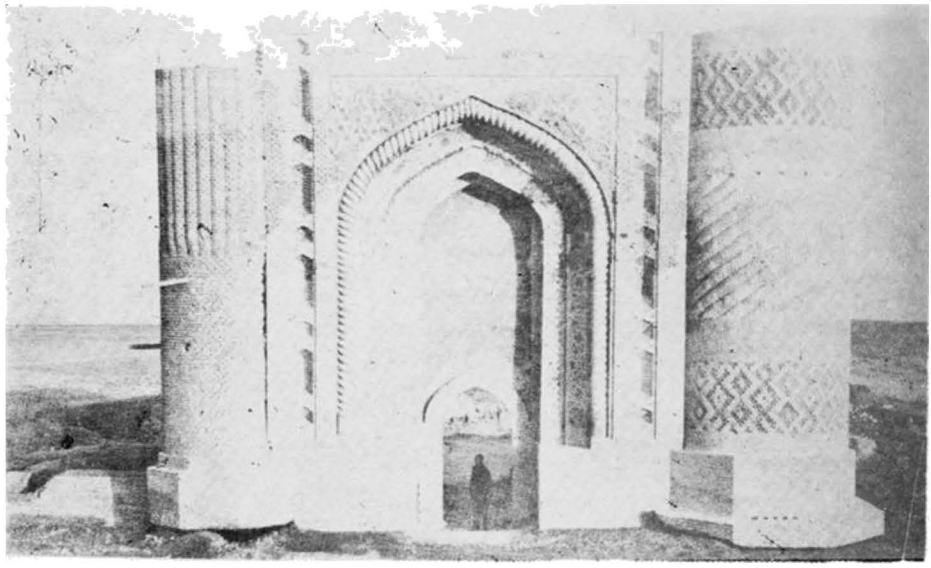

باب وعلى طرفيها قاعدة مئذنتين تعرف بـ (المنـارة)
في الجانب الشرقي من مدينة واسط

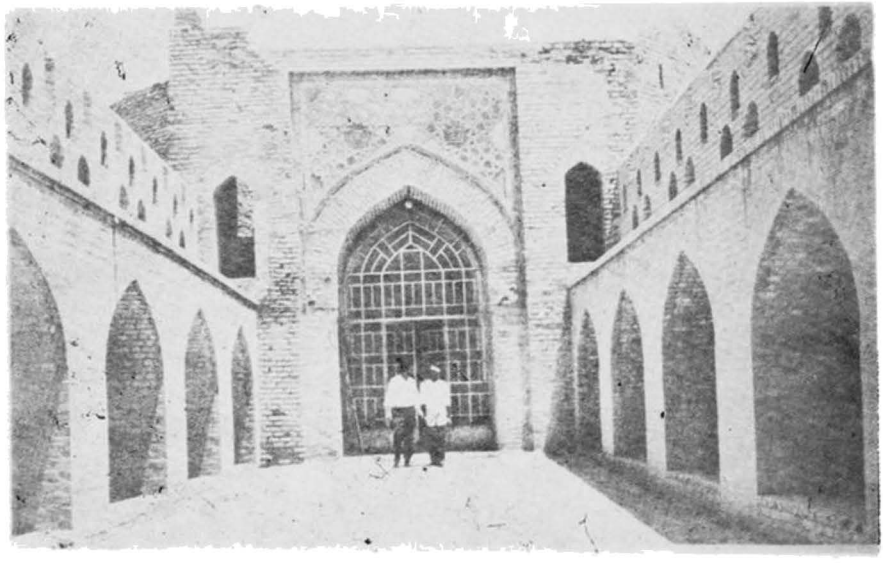

باب الوسطاني (باب الظفرية) أحد أبواب سور بغداد (الرصافة)
بناه المسترشـــد بالله سنة ٥١٠هـ

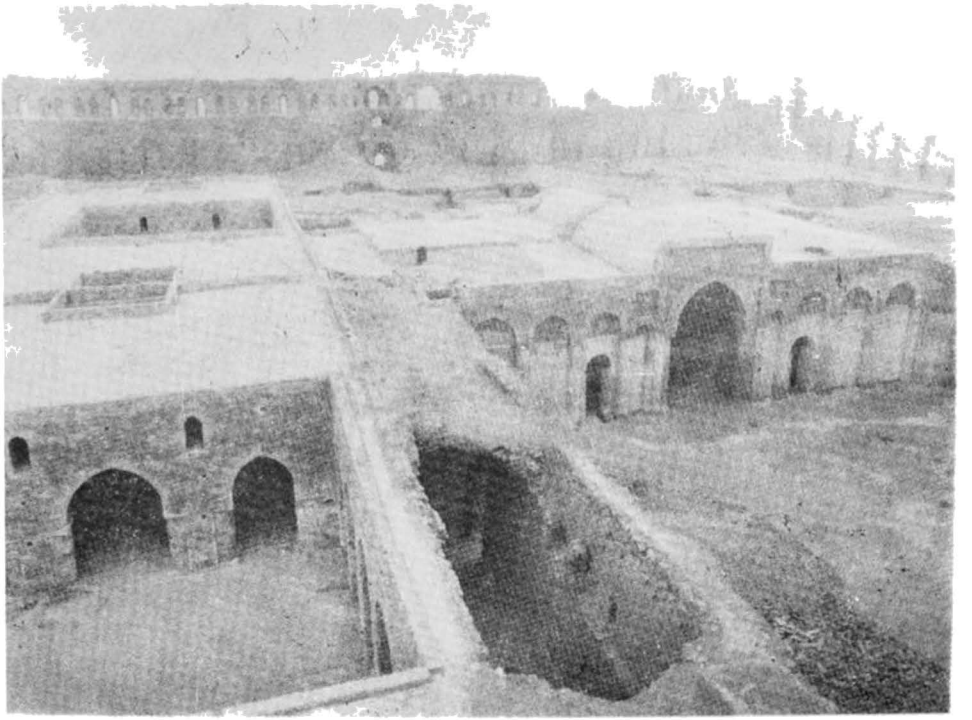

منظر داخلي (لقصر الاخيضر) في الوسط ، (ساحة الشرف) وخلفها
(قاعة العرش) والى اليسار أحد (البيـــوت) في القصر

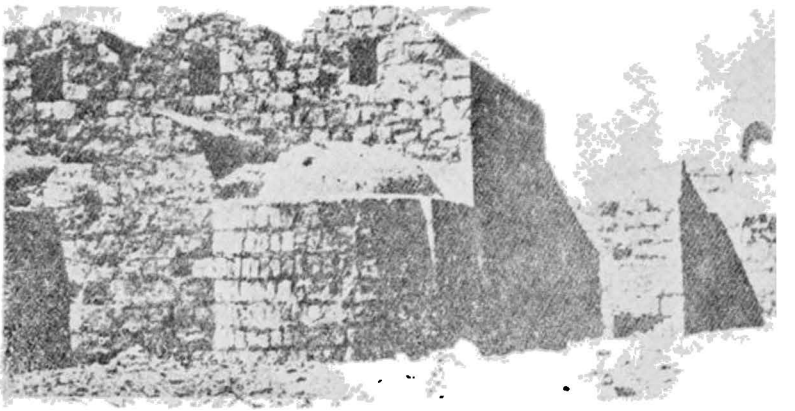

الجدار الخلفي لحمام
قصير عمره في بادية الشام

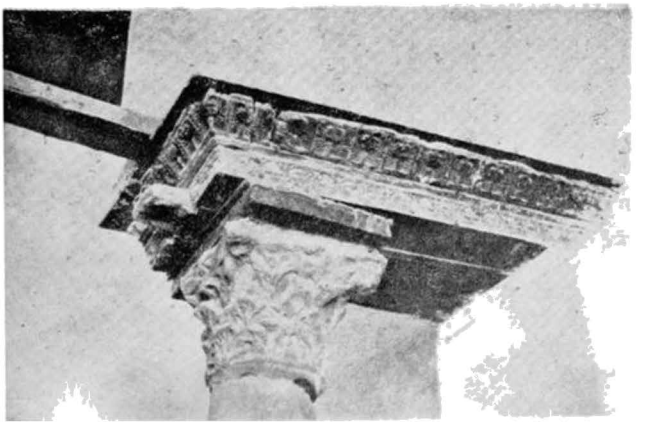

احد الاعمدة في جامع عمرو بن العاص
في الفسطاط ، اسس سنة ٦٤٢م .

جامع الجمعة الكبير في سامراء والمئذنة المعروفة (بالملوية)

جامع (ابي دلف) في وسط (المتوكلية) في سامراء

بقايا قصر المشتى في باديـة الشـام

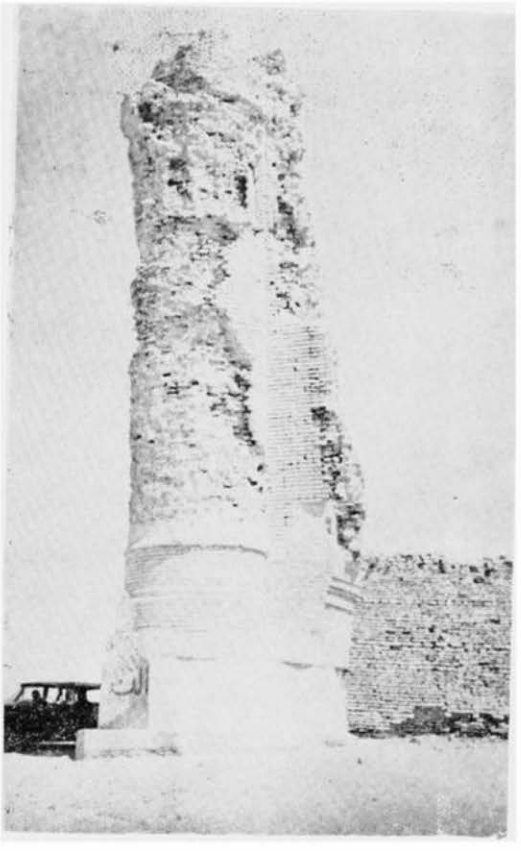

احد أركان جامـع البصـرة القـديم

منظر الحفريات الاثرية في دار الامارة في الكوفة
الى الشمال منه سـور مسـجد الكوفـة الكبـير

مدخل قصر الحير الشرقي الاموي في بادية الشام

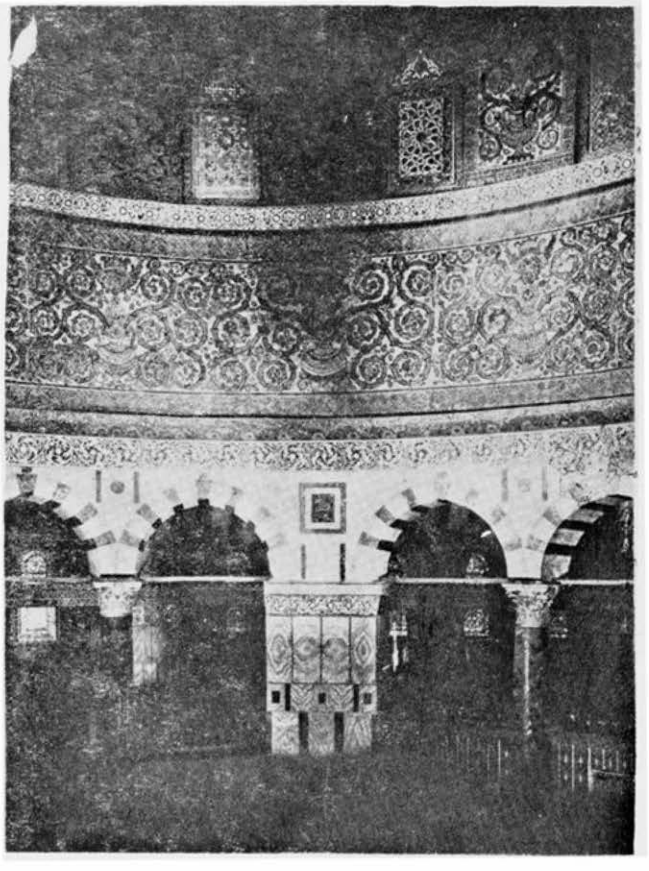

منظر داخـلي لقبـة الصخرة

ايوان وأروقة البناء المعروف (بالقصر العباسي) في بغـداد
ومن المحتمل ان يكون مدرسـة

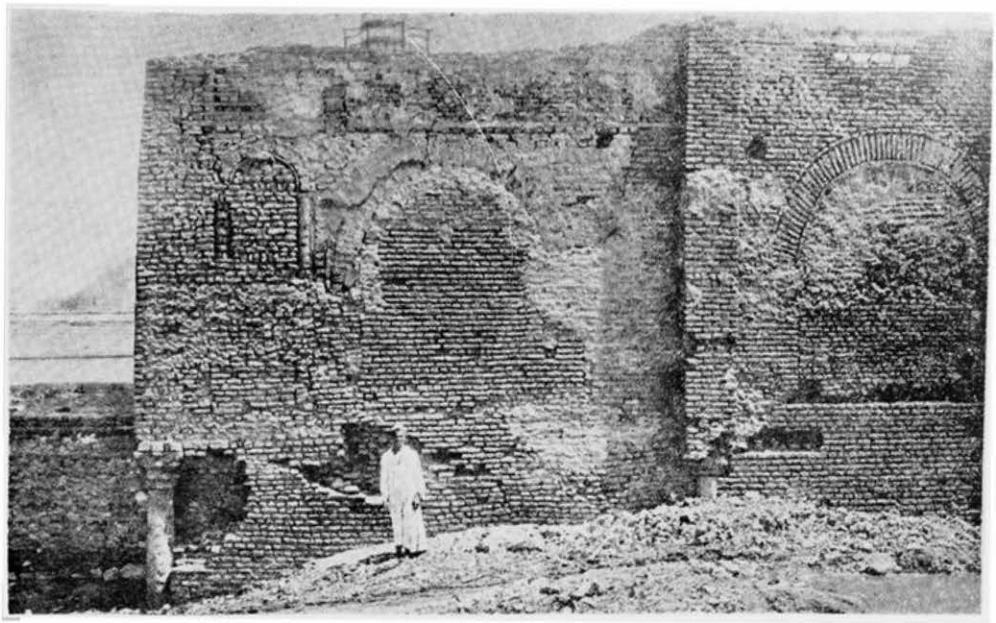

(باب بغداد) في مدينة الرقة التي أسسها المنصور على نهر الفرات

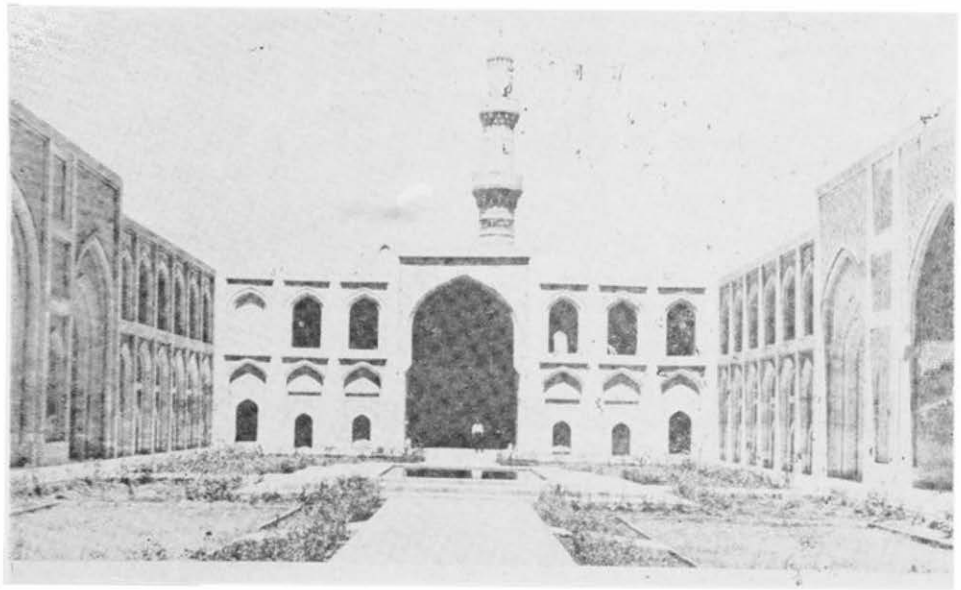

المدرسة المستنصرية شيدها المستنصر بالله العباسي عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م

في جدار القبلة وبناء المئذنة واستعمال العقود والاقواس الشبيهة بحدوة الفرس ، وكذلك الزخارف والفسيفساء التي تزين الجدران والعقود التي لا يضاهيها اي عمل مماثل عند الرومان .

ثم انتقل عبدالملك بن مروان الى المسجد الاقصى في القدس فاعاد بناء مسجد الصخرة ورصد لنفقاتها خراج مصر لسبع سنوات ، فامر ان تكون الصخرة في وسط المسجد وتهيىء مساحة مناسبة تحيط بالصخرة لطواف اكبر عدد ممكن من الحجاج حولها ، وجعل فوق الصخرة قبة ذات اسطوانة قطرها ٢٠٫٤ مترا وارتفاع اعلى القبة عن الارض ٣٠٫٦٠ مترا ، ويحيط بالصخرة رواقان بشكل مثمن عدد العقود فيها ٢٤ عقدا ، وفي حلب اسس الامويون الجامع الاموي الكبير (مسجد زكريا) سنة ٧١٥م واشتهر هذا المسجد بمئذنته المربعة الشكل ذات الهندسة السلجوقية البديعة .

وبنى الخليفة سليمان بن عبدالملك مدينة الرملة في فلسطين وجعلها مركزا له ، وان مئذنة مسجدها الابيض لاتزال قائمة حتى الآن .

واتخذ مروان الثاني مدينة حران سكنا له وبنى المسجد الكبير فيها .

اما في مصر فقد امر معاوية بن ابي سفيان عامله مسلمة بن مخلد بتوسيع مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط فاضيفت له مساحة من الارض واصبح له صحن واسع . كما ان الخليفة عبدالعزيز بن مروان قام بتوسيع هذا المسجد من الجهتين الشمالية والغربية . وفي سنة ٧١٠م امر الوليد بن عبدالملك بهدم جميع البناء القديم حتى الاسس واقام مكانه بناء جديدا بعد ضم دار عمرو بن العاص والطريق الى مساحة المسجد .

وقام الامويون باعادة بناء الكعبة المشرفة عندما استولى الحجاج على مكة بعد مقتل عبدالله بن الزبير ، فامر عبدالملك بن مروان بتوسيع الحرم وتجديد السقوف وجعلها من خشب الساج ، واقامة السواري المحلاة رؤوسها بالذهب ، وزخرفة العقود بالفسيفساء فكانت اول زينة استعملت في المقام الشريف .

وفي المدينة امر الوليد بن عبدالملك باعادة بناء المسجد وتوسيعه ، وضم منزل الرسول (ص) اليه ، واستعمل الرخام للاعمدة والفسيفساء في تزيين الجدران ، واقيمت اربع مآذن في الاركان ، وادخل المحراب في جدار القبلة .

وقام زياد بن ابيه عامل معاوية على العراق باعادة بناء مسجد البصرة واستبدل السقف القديم بسقف من خشب الساج وبنى منارة للمسجد . كما قام بتوسيع مسجد الكوفة بحيث صار يتسع لستين الف مصلٍ ، وبنى الجدران بالآجر والجص ، ورفع السقوف على اعمدة حجرية جلبها من الحيرة ، واصبح المسجد اشبه بقاعة الاعمدة في قصور الفرس .

وبنى عتبة بن فرقد الجامع الاموي الكبير في الموصل ، وقد توسع هذا الجامع في ولاية هرثمة بن عرفجه البارقي واصبح مسجدا جامعا وبنى مروان بن محمد منارة ومقصورة يصلي بها في هذا الجامع .

وعندما تم فتح تونس سنة ٦٧٠م اسس القائد عقبة بن نافع مدينة القيروان وجعلها معسكرا لجنوده ، وبنى جامعها الشهير سنة ٦٧٥م فكان آية في الروعة ، واختط دار الامارة وجعل الدور من حولها . وقد اشتهر جامع القيروان بمئذنته ذات القاعدة المربعة والتي يبلغ ارتفاعها ٣٢ مترا ، كما ان طراز القباب ذات المقرنصات في هذا المسجد آية في الفن والروعة .

واشتهر في المغرب مسجد مدينة تونس ويعتبر المسجد الثالث من حيث السعة والاتقان في البناء .

ومن آثار العرب في شمال افريقية رباط سوسه ويعرف ب (قصر الرباط) ، بناه ابراهيم بن الاغلب سنة ٢٠٦هـ - ٨٢١م ، وهو بناء حصين مربع التخطيط ٣٩×٣٩ مترا ، في سوره الخارجي ابراج عالية ، والبناء بطابقين ، ويطو البناء قبة تمتاز بخصائص معمارية لها اهمية كبرى في بناء القباب الاسلامية ، وقد جعلت هذه القبة مئذنة ومنارة لحراسة البحر ومرقبا لحراس القصر .

القصور والقلاع الاموية في بادية الشام :

لم يقتصر اهتمام الخلفاء الامويين على بناء المساجد والجوامع في مختلف المدن الاسلامية بل اراد بعضهم ان ينعم بحياة البادية الملائمة لطبيعة نشأتهم العربية الاصيلة ، فانشؤا عددا من القصور التي هي اشبه بالقلاع في بادية الشام اهمها (قصر المشتى) الذي يعتقد بانه بني قصرا للخليفة يزيد الثاني ٧٢٠-٧٢٤م الذي كان يفضل السكن البعيد عن المدينة مع (حبابة) احب نسائه . يقع هذا القصر الجميل في الاردن على بعد عشرين ميلا جنوب عمان ، وهو الآن في حالة متهدمة ، نقلت معظم زخارفه المحفورة في الحجر الى متحف برلين سنة ١٩٠٣ . ويتكون القصر من ثلاثة اقسام رئيسة ، يحيط بها سو ر ذات ابراج ضخمة من جهاته الاربع .

وعلى بعد ستين ميلا جنوب شرقي عمان بناء آخر اشبه بقلعة ذات ابراج عالية وسط الصحراء يعرف ب (قصر الطوبة) بناه الخليفة الوليد الثاني سنة ٧٤٤م ، ويتالف القصر من دارين وفي كل دار اربعة بيوت متناظرة من حيث توزيع الغرف والقاعات فيها ، وهناك شبه كبير بين هذا القصر وقصر المشتى مما يدل على انهما شيدا في وقت واحد تقريبا .

وهناك قصر آخر في الاردن يسمى (قصير عمره) يقع على بعد خمسين ميلا شرق عمان ، ويتكون القصر من قسمين هما قاعة الاستقبال ثم الحمام الساخن الذي يقع خلف هذه القاعة . والحمام مقسم الى ثلاثة غرف متصلة ببعضها الاولى الغرفة الباردة ثم الغرفة الدافئة وبعدها الغرفة الساخنة ، ويحلى جدران القصر واقبيته من الداخل صور من النوع المعروف باسم (فريسكو) ذات الالوان المختلفة .

وعلى مقربة من قصير عمره قصر يعرف (بقصر خرانه) شيد بطابقين ولايزال محافظا على اقسام عديدة من بنائه ، وتشير الكتابة على احدى الجدران انه بني سنة ٧١١م ، وتوجد في الطابقين عدة غرف كل مجموعة منها تشكل بيتا مستقلا .

وبنى الامويون قصرا آخر في البادية يسمى (قصر الصرح) يرجع تاريخه الى ٧٢٥-٧٣٠م لما بينه وبين قصير عمره من شبه كبير ، فلهذا القصر حمام ساخن كما في قصير عمره .

وللخليفة هشام بن عبدالملك قصر عظيم في (خربة المفجر) في (اريحا) في فلسطين . في هذا القصر مسجد وحمام مبلط بالفسيفساء وساحة كبيرة فيها نافورة او بركة ماء مثمنة الشكل .

وفي الجهة الشرقية من ساحل بحيرة طبرية في فلسطين

يقع (قصر المنيا) ، وتذكر الكتابة الكوفية التي اكتشفت فيه اسم الوليد بن عبدالملك ، وللقصر مسجد يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية منه ، وفي القصر قاعات خصصت للاستقبال واقامة الاحتفالات لما فيها من زخرفة رائعة ونقوش جميلة ، وأرضية هذه القاعات كلها مبلطة بالفسيفساء باشكال هندسية بديعة .

والى الجهة الشمالية من تدمر وعلى بعد ستين ميلا عنها بنى هشام بن عبدالملك ٧٢٨م قصرا في الصحراء يسمى قصر (الحير الشرقي) ، تتالف بقايا هذا القصر من سورين محصنين بشكل مربع ذات ابراج نصف دائرية ، وفي الزاوية الجنوبية يقع مسجد القصر .

اما (قصر الحير الغربي) فقد نقلت انقاضه الى المتحف الوطني بدمشق واعيد بناؤه فيه .

وبنى الخليفة الوليد بن عبدالملك في مدينة (عنجر) الواقعة في وسط سهل البقاع في لبنان قصرا وجعله المقر الصيفي له لقربه من احدى منابع الليطاني . ومدينة عنجر بنيت على شكل قلعة مربعة تشبه القلاع الرومانية ، لها سور ضخم ذات ابراج ، وفي منتصف كل ضلع من اضلاع السور مدخل كبير للمدينة ، ويتصل بين الابواب الاربعة شوارع صفت على جانبيها اعمدة اسطوانية نقلت معظمها من ابنية رومانية قديمة ، وفي احدى الارباع من ساحة هذه المدينة يقع قصر الخليفة بثلاثة طوابق ، وعلى الجدران نحتت صور شبيهة بتلك التي وجدت في قصر المشتى ، اما تخطيط القصر فهو اشبه بمخطط قصر المنيا .

مدينة واسط :

وعندما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق سنة ٧٥هـ ـ ٦٩٤م في زمن خلافة عبدالملك بن مروان شيد على ضفة دجلة الغربية بلدة سماها واسط لتوسطها بين البصرة والكوفة ، وجعلها مقرا لحكمه . توسعت هذه المدينة واصبحت تشغل ضفتي النهر يربط بينهما جسر ، وبنى الحجاج مسجدا جامعا في الضفة الغربية وجعل دار الامارة وراء الجدار القبلي للجامع . ويشغل الجامع ارضا مساحتها ٣٠٠ر١٠٤ × ٥٠ر٢٠٣ مترا تحيط به بلاطات من جوانبه الاربعة ترتفع سقوفها على اسطوانات حجرية منحوتة .

اما قصر الحجاج فان اسسه تكاد تكون معدومة ولكن (ابن رسته) ذكر بان لهذا القصر قبة مشرفة عالية خضراء ترى من بعد سبع فراسخ (٣٥ كيلو مترا) ، وقد ظل هذا القصر ماثلا الى الربع الاخير من القرن السادس الهجري ، وقد جعل الحجاج الى مقربة من القصر سوقا عامرة كان التجار يتعاطون فيه مختلف البضاعة في تجاراتهم .

عصر الدولة العباسية :

ثار العباسيون على الامويين واستولوا على الحكم سنة ٧٥٠م وانتقلت الخلافة اليهم فاتخذ (ابو العباس السفاح) اول خلفاء العباسيين قصر بن هبيرة الواقع بين الكوفة وموقع بغداد مقرا له وسماه (الهاشمية) وعندما تولى الخلافة اخوه (ابو جعفر المنصور) ٧٥٤م ، ترك الهاشمية وخرج بنفسه ليختار مكانا يتوسط اقاليم دولته ويشرف على اطرافها ليتخذه عاصمة للمملكة . وعندما استقر رايه على موقع بغداد الذي كان معروفا ايام الدولة الساسانية ، بدا في تخطيط المدينة المدورة سنة ١٤٥هـ ـ ٧٦٢م .

قسم المنصور المدينة المدورة (دار السلام) على شوارع محدودة سماها الاسكك واسكنها الموظفين والموالين له ، وكان لهذه السكك ابواب وثيقة من طرفيها ، وجعل قصره ذي القبة الخضراء والمسجد الجامع في الرحبة الوسطى من المدينة ، واحاط المدينة بسورين عظيمين فيه اربعة ابواب او مداخل رئيسة محورية ، وجعل بين كل بابين ٢٨ برجا ما عدا جهة واحدة فيها ٢٩ برجا ، ويقدر طول قطر المدينة المدورة بـ ٥٠٩٣ ذراعا اي ٢٥١٢ مترا .

كان في صدر قصر المنصور المسمى بقصر الذهب ايوان طوله ٣٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا ، وفي صدر هذا الايوان مجلس الخليفة مساحته ٢٠ × ٢٠ ذراعا وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوقه القبة الخضراء . وكان المسجد الجامع ملاصقا للقصر بامتداد الضلع الشمالية لبناية القصر ، وكان للجامع منارة . وقد اعاد هارون الرشيد بناء الجامع بالآجر والجص سنة ١٩٢هـ ـ ٨٠٧م . وفي زمن المعتضد ٢٠٦هـ اضيف الى الجامع ديوان المنصور المعروف بـ (دار القطن) لتوسيعه . وزاد (بدر) مولى المعتضد في الجامع جزءا من قصر المنصور يسمى (المسقطات) ، ولم يكتف المعتضد بهذه الاضافات فقرر اقطاع مساحة كبيرة من القصر وضمها الى الجامع ايضا واصبح ما الحق بالجامع مساويا الى مساحة الجامع الاول .

وبالنظر لمساحة الارض المحددة داخل المدينة المدورة فقد امر المنصور ببناء حارة للتجار في جنوب المدينة سميت بـ (الكرخ) ، ثم اقطع المنصور قواد جيشه وارباب الحظوة الجانب الاكبر من الاراضي المحيطة بالمدينة . وسمح المنصور لابنه المهدي ان ينتقل بجنده الى الضفة الشرقية من النهر المقابلة للمدينة المدورة ، وبنى فيها دورا وسميت هذه المحلة بـ (الرصافة) ، واتصلت بالجانب الغربي بجسر اقيم عند باب الشعرية .

ثم توسع الجانب الشرقي من المدينة وبنيت فيه قصور عديدة واسواق كثيرة وكان الامتداد الى جنوب معسكر المهدي فاحيطت كل هذه المباني بسور عظيم واسع في نهاية القرن الخامس الهجري ، واصبح لهذا السور اربعة ابواب في الشمال (باب السلطان) ، باب المظم ، وفي الشرق بابان (الظفرية) او ما يسمى الباب الوسطاني ، وباب الحلبة او (باب الطلسم) وفي الجنوب (باب كلواذا) ، وقد شرع في بناء هذا السور المستظهر بالله سنة ٤٨٨هـ ـ ١٠٣٥م عندما اصبحت دار الخلافة في وسطه ، ثم اكمل بناء السور المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ ـ ١١٢٣م ، وجدد بناءه الناصر لدين الله .

ومن اعمال المنصور انشاء (مدينة الرقة) على نهر الفرات واقام فيها فصائل من جنده الخراسانيين ، وجعل سورها مزدوجا بشكل حدوة الفرس ، وفيها ابراج مستديرة ، وجعل مسجدها الكبير في النصف الشمالي من المدينة . ويجمع هذا المسجد بين طراز الفن المعماري العراقي والفن المعماري السوري ولايزال (باب بغداد) في سور المدينة محافظا على شكله القديم وهذا الباب اشبه ببرج طويل مستطيل الشكل في وسطه فتحة المدخل ، وتعلو واجهته زخرفة آجرية مكونة من سلسلة محاريب ثلاثية الفلقة يحيط بها اطارات ذات عقود متوجة تستند فوق اعمدة صغيرة متصلة بالبناء .

مدينة سامراء :

كانت سامراء ايام ازدهارها سيدة مدن العالم ، وهي اليوم اطلال تمتد مسافة ٣٥ كيلومترا على شاطيء دجلة الشرقي ، من

متوكلية المتوكل على الله في الشمال الى قاعدية المعتصم بالله في الجنوب .

وتقع سامراء على بعد ١٢٠ كيلومترا شمال بغداد ، بناها المعتصم سنة ٨٣٦م بعد ان افلقته الاقامة في بغداد لاسباب سياسية واجتماعية . وتلاه سبعة من الخلفاء توسعوا في اعمارها وتجميل قصورها ومساجدها ، وبعد خمسين سنة على تاسيسها هجرها المعتمد على الله سنة ٨٩٢م ورجع الى بغداد فاستحالة سامراء الى اطلال كما يشاهدها الزائر اليوم .

ويدل تخطيط هذه المدينة على براعة فائقة في هندسة المدن وتخطيطها ، ففيه الكثير من الابتكارات ويتجلى ذلك في تنظيم الشوارع وتوزيع المساكن وتنسيق الابنية العامة والاسواق والمتاجر والمساجد والحدائق وغيرها .

ويعد المسجد الجامع في سامراء اكبر المساجد في العالم حيث تبلغ مساحته ٤٥٥٠٠ مترا مربعا ، شيده المعتصم وعندما ضاقت سعته بالمصلين هدمه المتوكل وشيد محله المسجد الجامع الكبير القائم الآن سنة ٨٤٩-٨٥٢م ، ولهذا الجامع مئذنة ضخمة تعرف بـ (الملوية) ، يبلغ طول ضلع قاعدتها المربعة ٣٣ مترا تعلوها القسم الحلزوني الذي يدور في اتجاه معاكس لعقرب الساعة حتى تتم دورات خمس ينتهي بالقمة التي هي بشكل اسطواني قطره ٦ امتار وارتفاعه ٦ امتار ايضا ، وهذه ترتفع عن القاعدة بمقدار ٥٠ مترا .

ثم بنى المتوكل مدينة شمال سامراء جعلها تتصل بالقسم الجنوبي من المدينة بشارع عظيم ، وسميت هذه المدينة (المتوكلية) او (الجعفرية) ، وقد نقل المتوكل جميع الدواوين اليها وبنى مسجدا جامعا فيها سمي بـ (جامع ابي دلف) . وتبلغ مساحة هذا الجامع ٣٠٠٠٠ مترا مربعا ، تحيط بصحنه اروقة بنيت جدرانها وعقودها ودعاماتها بالآجر والجص . ولهذا الجامع مئذنة ملوية الشكل ايضا ولكنها اصغر حجما من ملوية الجامع الكبير في سامراء ، قاعدتها مربعة طول كل ضلع فيها ٢٠ر١١ مترا وارتفاعها ٥٠ر٢ مترا ، فوقها القسم الحلزوني الذي يدور عكس دوران عقرب الساعة ثلاث دورات ، ويبلغ ارتفاع المئذنة من القمة الى سطح القاعدة ١٦ مترا .

القصور العباسية :

كان من نتائج اتساع الدولة العباسية وامتداد نفوذها الى اغلب بقاع المعمورة ان تدفقت الخيرات على بغداد مقر الخلافة من هذه الامصار ، وقد عم اليسر فيها وساد الرخاء ، وتضاعفت الثروات ، وامتلات الخزائن بالمال الوافر . وكان ينفق القليل منها على تسيير امور الدولة ، والكثير منها كان يذهب الى خزائن الخلفاء والامراء واعيال الدولة ومنهم ينساب الى التجار والصناع والزراع وغيرهم من صنوف الناس ، وبنتيجة نمو المال عند هذه الطبقات اقبل الكثير منهم الى حياة البذخ والترف ، وعمدوا الى الاسراف في العيش ، وانصرفوا الى تشييد الدور الجميلة والقصور المنمقة ، وبالغوا في تجميلها وتزيينها بكل ما وهبوا من ذوق وما اوتي الصناع من حذق ومهارة وذكاء ، وكان الخلفاء ومن دونهم من امراء ووزراء وغيرهم يتنافسون في جعل قصورهم ودورهم آية في الفن ومثلا في روعة البناء وجمال المنظر .

من هذه القصور الفخمة في بغداد قصر التاج (دار الخلافة) اسس هذا القصر في ارض (القصر الحسني) على الضفة الشرقية من نهر دجلة قبل نهاية عهد المعتضد ، واكمل بناءه المكتفي بالله وجعل له مسناة ناتئة على النهر ، وزين واجهته بمعاقل نقلت من المدائن ، وشيد في بستانه قاعات عدة وبيوت صيفية وقبة عرفت بـ (قبة الحمار) مدرجة أشبه بمنارة الملوية يصعد الى قمتها على حمار صغير . وقد اعاد بناء القصر المستضيء سنة ٥٧٤هـ - ١١٧٨م . وكانت الدار اشبه ببلدة فيها مجاميع لقصور وابنية ، وكان مركزها القصر الحسني ثم قصر الفردوس وقصر التاج ، وكان يحيط بكل هذه المباني سور بهيئة نصف دائرة فيه تسعة أبواب رئيسة ويمتد الى مسافة كيلومتر واحد على ضفة دجلة .

وكان (قصر الحسني) في الاصل قصرا لجعفر بن يحيى البرمكي ، فيه ٣٦٠ مرفقا مابين مجلس ومستشرف وحجرة وموضع تبريد بالصيف وخزانة ، وقد بالغ في الانفاق عليه فكان من اجمل قصور بغداد . ولما فتك الرشيد بالبرامكة صار هذا القصر الى المامون فطابت له سكناه واتخذه منتزها ، وانشا فيه حديقة حيوانات ، وبنى منازل لخاصته واصحابه وحاشيته ، فسمي (القصر المأموني) . وعندما تولى المامون الخلافة انتقل الى (قصر الخلد) الذي بناه ابوه في الجانب الغربي من دجلة وترك القصر المأموني الى وزيره الحسن بن سهل وسمي (القصر الحسني) . ابتاع هذا القصر بعد ذلك الموفق بالله بن المتوكل ونزل فيه وصار بعده الى ابنه المعتضد ، فهدمه واعاد انشاءه وزاد فيه واتخذه مقرا للخلافة ، وبنى عليه سورا وحصنه وامر ان يبنى فيه مطامير وهي سجون في سراديب عميقة مظلمة . وعندما تولى الخلافة ابنه المكتفي بالله ٢٨٩هـ - ٩٠١م امر بهدم المطامير وبنى مسجدا جامعا وهو اصل المسجد الذي عرف باسم (جامع القصر او جامع الخليفة) الذي بنيت فيه في ايام المغول الايلخانيين المنارة الفخمة المعروفة بمنارة (سوق الغزل) .

قصر الاخيضر :

يعتبر قصر الاخيضر من احسن القصور العباسية التي بقيت محافظة على هيئتها العامة ولم يصبها الا الشيء الطفيف من الخراب ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد زمن بنائه ، فحدد الاستاذ (كريسول) زمن تشييده تحديدا دقيقا وجعله بين سنة ٧٢٠ وسنة ٨٠٠م وعزا بناءه الى (عيسى بن موسى) العباسي امير الكوفة زمن المنصور . يقع القصر بالقرب من وادي الابيض ، وعلى بعد ٥٠ ميلا شمال غربي الكوفة ، والقصر حصن شامخ مستطيل التخطيط ابعاده ١٧٥ × ١٩٦ مترا ، تتوسط كل واجهة من واجهاته الاربع بوابة عظيمة ، وقد بني القصر ملاصقا للسور من الجهة الشمالية . وجعل مركز هذا البناء (البهو الكبير) المغطى بقبو عال ، والى يمين مدخل القصر من الجهة الغربية من البهو نجد مسجد القصر بينما في الجهة الشرقية من هذا البهو مجموعة من الغرف مغطاة بأقبية عالية . ويلي البهو الكبير جنوبا دهليز يجري حول الفناء الاوسط او ما يسمى بـ (ساحة الشرف) وكذلك حول مجموعة غرف (قاعة العرش) ، وقاعة العرش هذه تقع على محور مدخل القصر تحيط بها عدة غرف وقاعات .

ويوجد حول الدهليز الكبير شرقا وغربا اربعة بيوت مستقلة ، كل اثنتين منها متشابهة من حيث النظام والترتيب ، ويعتبر هذا القصر من اجمل القصور العباسية المحصنة لما فيه من تصميم بديع سواء في التخطيط او في دراسة الواجهات والتفاصيل الهندسية الاخرى في البيوت او في القصر نفسه .

دار الخلافة في سامراء (الجوسق الخاقاني) :

يعد الجوسق الخاقاني من اهم القصور التي انشات في عهد المعتصم ، وكان قد اعده لسكناه ، يمتد هذا القصر على ضفة دجلة الشرقية جنوب (دار العامة) مطلا على الحير . وكانت ارض القصر ومشتملاته تشغل كل المساحة بين شاطيء دجلة والحير . وقد سكن القصر بعد المعتصم اخلافه من الخلفاء باستثناء الواثق والمتوكل . فالواثق سكن في (القصر الهاروني) والمتوكل انتقل الى (القصر الجعفري) بالمتوكلية ، ولقرب هذا القصر من مدينة سامراء الحديثة هدم وزالت معالمه واخذ الناس كل ما فيه من آجر .

اما (دار العامة) فهي من اهم العمارات التي شيدت في سامراء ولاتزال بعض اقسامها شاخصة حتى الآن . بناها المعتصم وكان يجلس فيها ايام الاثنين والخميس . ويقع القصر على هضبة عالية ، وتبلغ مساحته نصف مليون متر مربع تقريبا، ويمتد على طول ضفة دجلة اليسرى الى مسافة ٧٠٠ متر تقريبا، والمسافة بين واجهته ومنتهى بناياته الخلفية من جهة الشرق لا تقل عن ٨٠٠ متر . ويسمى مدخل القصر الذي يشرف على النهر (باب العامة) وهو اقل الاقسام تعرضا للتلف . اما المشتملات الاخرى فقد اقتلع الاهلون آجرها ولم يبق من الغرف والقاعات غير بقايا الاسس .

اهتمام العباسيين بالاماكن المقدسة وبناء الجوامع :

كان اهتمام المنصور كبيرا في تعمير المسجد الحرام ، فقد امر بشراء الدور المحيط بالمسجد وادخل ارضها في المسجد وبنى رواقا حول الرحبة ، واتخذ الاساطين من الرخام له ، وبذلك تضاعفت مساحة المسجد عما كانت عليه في عهد الامويين ، وقد انتهى هذا التوسع سنة ١٤٠هـ . وبنى المنصور مئذنة (بني سهم) ، وزين الجدران بزخارف الفسيفساء والذهب وقد سار ابنه المهدي على خطاه في الاهتمام بالمسجد الحرام حيث اشترى دورا اخرى ضمها الى ساحة المسجد واتخذ للمسجد ارولة جديدة سقفها بخشب الساج ، وبلغ عدد اساطين المسجد في زمنه ٤٨٤ اسطوانة منها ٣٢١ اسطوانة مذهبة الكراسي .

وقام المهدي ايضا بتوسيع المسجد النبوي الشريف واصبحت المساحة ٢٠٠×٣٠٠ ذراعا ، وادخلت اضافات اخرى على المسجد في زمن المامون ، ووزرت الجدران بالواح من الرخام وفوقها زخرفة من الفسيفساء بشكل اشجار ذات ثمار متنوعة ، واصبح للمسجد تسعة ابواب .

وعندما تهدم (مسجد الصخرة) الذي بناه عبدالملك بسبب الزلزال الذي حدث سنة ٨٧٠م قام المهدي باعادة بناء المسجد بصورة امتن مع المحافظة على ما بقي من القسم القديم ، وجعل الاعمدة من حجر . ثم رمم المسجد في عهد المامون ٨٣١م ولكن يظهر ان المامون عند قيامه باصلاح القبة حذف اسم الخليفة عبدالملك وحشر اسمه في موضعه ولم يغير تاريخ بناء القبة .

انشاء المدارس والمراقد والمارستانات والربط في العهد العباسي :

ان فكرة انشاء المدارس بصورة مستقل كانت تراود افكار العباسيين في زمن مبكر من تاريخ دولتهم ، ولهذا انشؤا (دور العلم) و (بيوت الحكمة) لترجمة علوم الاقدمين ، وقد حفلت بغداد منذ اواسط القرن الخامس للهجرة بعدد كبير من المعاهد والمدارس الكبرى القائمة بذاتها والمستقلة عن الجوامع . لقد كانت هذه المدارس اماكن للدرس ، يعيش فيها الطلاب وتتولى الدولة الانفاق عليها . واشتهر من المدارس في بغداد (مدرسة ابي حنيفة) و (المدرسة النظامية) و (مدرسة زمرد خاتون) والدة الخليفة الناصر لدين الله ، و (مدرسة السيدة بنفشه) حظية الخليفة المستضيء ، و (المدرسة البهائية) و (المدرسة التاجية) و (الكمالية) و (مدرسة المخرمي) اي مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلي ، و (المدرسة المستنصرية) .

ان هذه المدارس تكاد تكون جميعها متشابهة من حيث التخطيط والتصميم الهندسي ، فبوجه عام كانت المدارس تحتوي على ساحة او رحبة تعرف بالصحن ، تحيط بها حجرات في الطابق الاسفل ، وغرف في الطابق الاعلى احيانا ، وكان لاغلبها ارولة امام الغرف ، وقد تكون هذه الارولة ذات زخارف ومقرنصات جميلة الصنع دقيقة الزخرفة كما نشاهدها في البناء المعروف بـ (القصر العباسي) في بغداد .

اما الربط فهي من المنشاءات الخيرية الاجتماعية . انشاها الخلفاء والامراء لايواء العلماء الراحلين من قطر الى آخر طلبا للعلم ، ثم آلت الى دور يعيش فيها جماعة من الصوفيين المنصرفين للعبادة . ومن اقدم الربط الرباط الذي شيد مقابل جامع المنصور في مدينة السلام ، ثم بنيت عدة ربط في العصور العباسية المتاخرة لم يبق منها مايشير الى نظام تخطيطها وتكوينها المعماري .

اما المارستانات في بغداد فقد ذكر المؤرخون ان الرشيد انشا مارستانا في بغداد كما انشا البرامكة مارستانا آخر فيها . ومن المارستانات المعروفة (مارستان الامير بدر المقتدري) احد مماليك الخليفة المقتدر ، و (مارستان الوزير علي بن عيسى الجراح) بمحلة الحربية بالجانب الغربي من بغداد ، و (مارستان السيدة شغب) والدة الخليفة المقتدر بالله على شاطيء دجلة الشرقي ، واتخذ المقتدر مارستانا بباب الشام بالجانب الغربي ايضا ، وانشا (الوزير ابو الحسن علي بن الفرات) مارستانا في درب الفضل ، وقد زالت معالم هذه المارستانات بعد زوال اصحابها . ثم انشا المستنصر بناية خاصة مقابل باب المدرسة المستنصرية الرئيس لمدرسة الطب ، وكانت صفة فاخرة تحت الايوان والذي تكامل بناؤه سنة ١٢٣٥م لتدريس الطب ومداواة المرضى على اختلاف مرضهم ، وفي المدرسة مخزن لانواع الاشربة والادوية والعقاقير ، وقد زالت هذه المدرسة واصبحت اسواقا . وكان فوق ايوان المدرسة ساعة عجيبة الصنع فيها بازان وطاستان من الذهب ولها اثنى عشر بابا تعلن اوقات النهار والليل .

الجوامع العباسية القديمة في بغداد :

من الجوامع القديمة في بغداد جامع (زمرد خاتون) زوجة الخليفة المستضيء ووالدة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ لم يبق من هذا الجامع غير منارته القائمة في الجانب الشرقي من بغداد على ساحل دجلة . وفي الجانب الغربي من بغداد انشا في زمن المستنصر (جامع قمرية) على شاطيء النهر واصبح مدرسة للحديث والقرآن ، وتعد المئذنة في هذا الجامع من اجمل المآذن من حيث التناسب والتناسق ، كما ان قبلة هذا الجامع اصح اتجاها من غيرها من القبلات في المساجد الاخرى .

وفي جانب الكرخ بنى الخليفة الناصر لدين الله مرقدا للشيخ معروف الكرخي سنة ٦١٢هـ ـ ١٢١٥م ، وفي منارة المسجد الملاصق للمرقد زخارف ومقرنصات تعد آية من آيات الزخرفة الاسلامية .

وفي الموصل أمر المهدي عامله فيها ان يقوم بتوسيع الجامع الاموي وذلك بضم الاسواق التي تحيط به ومواضع المطبخ التي بناها مروان الى مساحة المسجد ، فاتسعت المساحة واصبحت ٢٥٠×١٥٠ مترا . وفي هذا الجامع محراب آية في الفن والابداع لما يحويه من كتابات كوفية مشجرة ونقوش وزخارف متناظرة وتعرف منارة هذا المسجد اليوم بـ (منارة الكوازين) .

الدولة الطولونية في مصر :

عندما أصبح الاتراك أصحاب السطوة في الدولة العباسية ، يعينون من شاؤا ومن يعتمدون عليه ولاة على مختلف الاقطار الاسلامية اختاروا (احمد بن طولون) لولاية مصر ، فذهب اليها ودخل الفسطاط في سنة ٨٦٨م ، وهنا اخذت تظهر اطماعه ، وكانت ثروة مصر وغناها تساعدان على تنفيذ ما يطمح اليه من تاسيس مملكة لها شخصيتها ومكانتها بين الممالك الاسلامية .

بدأ ابن طولون اولا في تخطيط حاضرة جديدة تماثل سامراء ، تلك العاصمة التي ترعرع فيها واعجب بجمالها وبرحابة ميادينها وعظمة قصورها ومساجدها ، فكان له ما اراد ، وأسماها (القطائع) ، وشيد فيها قصرا وساحة او ميدانا للفروسية ، موقعها كما يصفها المقريزي ينطبق على (ميدان رميله) في القلعة . أما المسجد فقد سمي بـ (جامع ابن طولون) وهو مازال قائما في القاهرة وبقي خالدا الى يومنا هذا . باشر ابن طولون في بناء الجامع سنة ٢٦٥هـ ـ ٨٧٧ وأتمه بعد سنتين وصار درة فريدة بين الجوامع في مصر ، ويعتقد المؤرخون ان ابن طولون قد تأثر بطراز بناء الجوامع الكبيرة في سامراء وزخارفها عند بناء جامعه هذا .

يشغل الجامع ارضا مساحتها ٢٦٣١٨ مترا مربعا ، وفي حرمه خمسة اروقة موازية لجدار القبلة تنقسم الى سبع عشرة بلاطة ، وحول صحن الجامع المربع الشكل بلاطتان في كل جهة من الجهات الثلاث . ولهذا الجامع مئذنة الفرب في مظهرها من مئذنة الملوية في سامراء وان اختلفت عنها بالمظهر والبنيان . ترتفع هذه المئذنة باربع دورات فوق قاعدة حجرية مربعة ارتفاعها ٢١٫٣٥ مترا ، وارتفاع المئذنة الكامل ٤٤٫٠ مترا .

لقد تعددت العناصر الزخرفية في هذا الجامع وتنوعت تنوعا كبيرا في مواضيعها وأساليبها واشكالها ، واكثر الزخارف تنوعا تلك التي نراها على بواطن العقود ، ففيها مجموعات من اشكال التوريق التي تتكون من عناصرها آليء وزهيرات وأوراق العنب واشرطة واسنة مثلثة وخطوط لولبية واخرى معقوفة متعاقبة ودوائر مقصوصة .

الخلاصة :

مما تقدم نرى ان العرب خلال هذه الفترة قد ادخلوا تطورا كبيرا في فن العمارة الاسلامية ، فساد فيها مدرستان للفن المعماري ـ المدرسة السورية المتأثرة لحد ما بالاساليب المعمارية الهلنستية المسيحية (البيزنطية) ، وقد انتشر هذا الطراز في بلاد الشام اولا ثم انتقل الى شمال افريقية حتى وصل الى الاندلس .

والمدرسة الثانية المدرسة العراقية التي كان للاساليب المعمارية الساسانية المعمارية العراقية القديمة ، البابلية والاشورية وغيرها بعض التأثير فيها . ولكن مهما كانت هذه التأثيرات بادية في الطراز العربي الاسلامي فان العرب خلال هذه الفترة القصيرة التي لا تتجاوز القرن ونصف القرن قدموا للعالم فنا متميزا عن غيره من الفنون ، وجعلوا هذا الفن يتمشى مع مقاصدهم الدينية والدنيوية .

ومع اعترافنا بأن اهل الفن من العرب قد تطعوا الشيء الكثير ممن سبقهم في هذا المضمار الا انهم عندما مرنت ايديهم على الانتاج والعمل اخذوا يبدعون في البناء والزخرفة وغيرهما من الفنون فتجلت في اعمالهم روح جديدة وبرزت لها خصائص باهرة غير مسبوقة .

هذا وفي بحثنا القادم سنتناول دراسة الفترة الثانية من الفترات الكبرى للفن المعماري الاسلامي ونبين ما انتجه العرب خلالها انشاء الله .